العِبَادة

مهمّة الإنسَان الأولى في الوجود

- مهمة الإنسان في هذا الوجود
- الأسئلة الخالدة.
- من أين؟
- إلى أين المسير؟
- لماذا خلق الإنسان؟
- النداء الأول في كل رسالة :

﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾

- الجميع مأمورون بالعبادة

obeikandl.com

obeikandl.com

●مهمة الإنسان في هذا الوجود:

لماذا وجدت؟ وما مهمتي في هذا الوجود؟ ورسالتي في هذه الحياة؟

سؤال واجب على الإنسان – كل إنسان– أن يسأله لنفسه، وأن يفكر مليًا في جوابه.

فإن كل جهل – مهما عظمت نتائجه– قد يُغتفر، إلا أن يجهل الإنسان سر وجوده، وغاية حياته، ورسالة نوعه وشخصه في هذه الأرض!

وأكبر العار على هذا الكائن الذي أوتي العقل والإرادة –الإنسان– أن يعيش غافلًا، يأكل ويتمتع كما تأكل الأنعام، لا يفكر في مصيره، ولا يدري شيئًا عن حقيقة نفسه، وطبيعة دوره في هذه الحياة حتى يوافيه الموت بغتة، فيواجه مصيره المجهول، دون استعداد له، ويجني ثمرة الغفلة والجهل والانحراف في عمره الطويل أو القصير. وحينئذ يندم حين لاينفع الندم ويرجو الخلاص ولات حين مناص.

لهذا كان لزامًا على كل بشر عاقل أن يبادر فيسأل نفسه بجد: لماذا خلقت؟ وما غاية خلقي؟

●الأسئلة الخالدة:

وقبل أن يجيب عن هذا السؤال، أو يجاب عنه، بل قبل أن يسأله، يلزمه أن يسأل نفسه سؤالين آخرين، لكي يتضح له الجواب، وتتبين له الحقيقة كاملة مشرقة، لا يحجبها سحاب ولا ضباب.

السؤال الأول هو: من أنا؟ ومن أين جئت؟ وبعبارة أخرى: من أوجدني؟

السؤال الثاني هو: ما مصيري بعد أن وجدت؟ وإلى أين أذهب بعد الموت؟

ويعبر بعض المفكرين عن هذه الأسئلة بهذه الكلمات الموجزة: من أين؟ وإلى أين؟ ولم؟.

هذه هي الأسئلة الثلاثة التي صاحبت الإنسان منذ فكر وتأمل، ولا زالت تصحبه وتلح عليه وتطلب الجواب الشافي لها. فبدون هذا الجواب لا تتحدد كينونة الإنسان، ولا موضعه في الكون ولا رسالته في الوجود. وكيف يتحدد شيء من ذلك إذا كان كائنًا

●مهمة الإنسان في هذا الوجود :

لماذا وجدت؟ وما مهمتي في هذا الوجود؟ ورسالتي في هذه الحياة؟

سؤال واجب على الإنسان - كل إنسان- أن يسأله لنفسه، وأن يفكر مليًّا في جوابه.

فإن كل جهل - مهما عظمت نتائجه- قد يُغتفر، إلا أن يجهل الإنسان سر وجوده، وغاية حياته، ورسالة نوعه وشخصه في هذه الأرض!

وأكبر العار على هذا الكائن الذي أوتي العقل والإرادة -الإنسان- أن يعيش غافلًا، يأكل ويتمتع كما تأكل الأنعام، لا يفكر في مصيره، ولا يدري شيئًا عن حقيقة نفسه، وطبيعة دوره في هذه الحياة حتى يوافيه الموت بغتة، فيواجه مصيره المجهول، دون استعداد له، ويجني ثمرة الغفلة والجهل والانحراف في عمره الطويل أو القصير. وحينئذ يندم حين لاينفع الندم ويرجو الخلاص ولات حين مناص.

لهذا كان لزامًا على كل بشر عاقل أن يبادر فيسأل نفسه بجد : لماذا خلقت؟ وما غاية خلقي؟

●الأسئلة الخالدة :

وقبل أن يجيب عن هذا السؤال، أو يجاب عنه، بل قبل أن يسأله، يلزمه أن يسأل نفسه سؤالين آخرين، لكي يتضح له الجواب، وتتبين له الحقيقة كاملة مشرقة، لا يحجبها سحاب ولا ضباب.

السؤال الأول هو : من أنا؟ ومن أين جئت؟ وبعبارة أخرى : من أوجدني؟

السؤال الثاني هو : ما مصيري بعد أن وجدت؟ وإلى أين أذهب بعد الموت؟

ويعبر بعض المفكرين عن هذه الأسئلة بهذه الكلمات الموجزة : من أين؟ وإلى أين؟ ولم؟.

هذه هي الأسئلة الثلاثة التي صاحبت الإنسان منذ فكر وتأمل، ولا زالت تصحبه وتلح عليه وتطلب الجواب الشافي لها. فبدون هذا الجواب لا تتحدد كينونة الإنسان، ولا موضعه في الكون ولا رسالته في الوجود. وكيف يتحدد شيء من ذلك إذا كان كائنًا

obeikandi.com

لا يعرف : ما هو؟ ولا لم هو؟ ولا من أين هو؟ ولا إلى أين هو؟!

إنها الأسئلة الخالدة التي حاوت كل فلسفة في الشرق أو في الغرب أن تجيب عنها. بل لا تعد فلسفة إذا أغفلت الجواب عنها.

من أين؟

وإلى أين؟

ولماذا؟

ومن أين جئت أنا الإنسان؟ ومن جاء بي؟ وكذلك من أين جاء هذا العالم الكبير من حولي؟

وإلى أين أسير وأرحل بعد أن أوجدت في هذا الكون؟ وإلى أين يسير هذا الكون أيضًا؟ وماذا بعد هذه الصفحات التي أطويها من كتابي الذي يسمى «العمر»؟

ولماذا خلقت في هذا العالم؟ وهل لي فيه من رسالة خاصة، ومهمة متميزة؟ وما هي هذه الرسالة، وتلك المهمة؟

●من أين؟

أما السؤال الأول فهو عقدة العقد عند الماديين الذين لا يؤمنون إلا بما تقع عليه الحواس. إنهم يخنقون صوت الفطرة في صدورهم. ويتحدُّون منطق العقل في رؤوسهم، ويصرون - في عمى عجيب - على أن هذا الكون بما فيه ومن فيه وجد وحده! وكل ما فيه من إحكام وترتيب إنما هو صنع المصادفة العمياء!

أما الذين يستجيبون لنداء الفطرة فيقرُّون بأن لهم ولهذا الكون حولهم رَبًّا عظيمًا تتجه قلوبهم إليه بالتعظيم والرجاء والخشية والتوكل والاستعانة. هذا شيء يشعرون به في أعماقهم شعورًا أصيلًا، وهذا هو الدين الذي عبَّر عنه القرآن بقوله: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا ۚ فِطْرَتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى فَطَرَ ٱلنَّاسَ عَلَيْهَا ۚ لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الروم: ٣٠].

وقد يخفت هذا الصوت الفطرى في النفس أو يكبته صاحبه عمدًا في ساعات الرخاء

obeikandi.com

والدعة ، فإذا نزلت بالإنسان أحداث مريرة ، واهتز عوده أمام الشدائد القاسية ، وخاب أمله في الناس حوله ، هُنالك ينطلق هذا الصوت متجهًا إلى ربه ضارعًا خاشعًا داعيًا راجيًا منيبًا إلى الله.

سأل رجل الإمام جعفر الصادق - رضي الله عنه- عن «الله» فقال : ألم تركب البحر؟. قال : بلى. قال : فهل حدث لك مرة أن هاجت بكم الريح عاصفة؟. قال : نعم. قال : وانقطع أملك من الملاحين ووسائل النجاة؟ قال : نعم. قال : فهل خطر في بالك وانقدح في نفسك أن هناك من يستطيع أن ينجيك إن شاء؟ قال : نعم. قال : فذلك هو «الله».

وعلى هذه الحقيقة تنبه آيات كثيرة في القرآن : ﴿وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ضُرٌّ دَعَا رَبَّهُۥ مُنِيبًا إِلَيْهِ﴾ [الزمر : ٨] ﴿وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [لقمان : ٣٢]. ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء : ٦٧].

ويقول ديكارت : إني مع شعوري بنقص في ذاتي ، أحس في الوقت نفسه بوجود ذات كاملة ، وأراني مضطرًا إلى اعتقادي بأن هذا الشعور قد غرسته في ذاتي تلك الذات الكاملة المتحلية بجميع الصفات الكاملة وهي «الله».

ونظرًا لأن الشعور نابع من الفطرة الأصلية نجد الإيمان بقوة عليا فوق الطبيعة وفوق الأسباب ، أمرًا مشتركًا بين بني الإنسان في جميع البقاع ، وبين شتى الأجناس والأقوام ، وفي مختلف مراحل التاريخ.

يقول الفيلسوف الفرنسي برجسون : «لقد وجدت وتوجد جماعات إنسانية من غير علوم وفنون وفلسفات ، ولكن لم توجد قط جماعات بدون ديانة».

ويقول أرنست رينان في تاريخ الأديان : «إنه من الممكن أن يضمحل كل شيء نحبه ، وأن تبطل حرية استعمال العقل والعلم والصناعة ولكن يستحيل أن ينمحي التدين ، بل سيبقى حجة ناطقة على بطلان المذهب المادي ، الذي يريد أن يحصر الفكر الإنساني في المضايق الدنيئة في الحياة الأرضية»[1] .

---

(١) انظر : الدين ، للدكتور دراز ص ٨٧ .

وإذا كان منطق الفطرة يهدي إلى الله -والفطرة ليست وجدانًا خالصًا ولا عقلًا مَحْضًا، وإنما هي مزيج منهما- فإن العقل المحض يرى الإيمان بالله ضرورة لا محيص عنها حتى يستطيع أن يفسر بها وجود الكون والحياة والإنسان فإن العقل - بغير تعلم ولا اكتساب- يؤمن بقانون «السببية» إيمانه بكل البدائه والأوليات، فلا يقبل فعلًا من غير فاعل، ولا صنعة من غير صانع.

وقانون السببية هو الذي عبَّر عنه الأعرابي بسذاجة وبساطة حين سألوه عن «الله» فقال: البعرة تدل على البعير، وخط السير يدل على المسير، فكيف بسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، أفلا يدل ذلك على العلي الكبير؟!

يقول العالم الطبيعي المعروف إسحاق نيوتن: «لا تشكوا في الخالق فإنه مما لا يعقل أن تكون المصادفات وحدها هي قاعدة هذا الوجود!» وكلما ازداد اطلاع الإنسان على عجائب الكون، ومعرفته بما فيه من جمال وإحكام ولم يقف عند القشور ازداد إيمانًا بوجود الخالق وحكمته وعظمته وكمال صفاته. وفي هذا ينقل لنا سبنسر عن «هرشل» قوله: كلما اتسع نطاق العلم ازدادت البراهين الدامغة القوية على وجود خالق أزلي لا حد لقدرته ولا نهاية: فالجيولوجيون والرياضيون والفلكيون والطبيعيون قد تعاونوا على تشييد صرح العلم وهو صرح عظمة الله وحده!

ويقول سبنسر: «إن العالم الذي يرى قطرة الماء فيعلم أنها تتركب من الأوكسجين والأيدروجين بنسبة خاصة، بحيث لو اختلفت هذه النسبة لكانت شيئًا آخر غير الماء. ليعتقد عظمة الخالق وقدرته، وحكمته وعلمه الواسع، بأشد وأعظم وأقوى من غير العالم الطبيعي الذي لا يرى فيها إلا أنها نقطة ماء فحسب! وكذلك العالم الذي يرى قطعة البَرد وما فيها من جمال الهندسة، ودقة التقسيم. لا شك أن يشعر بجمال الخالق، ودقيق حكمته، وأكبر من ذلك الذي لا يعلم عنها إلا أنها مطر تجمد من شدة البرد»!.

ويقول فرنسيس بيكون: «إن القليل من الفلسفة يميل بعقل الإنسان إلى الإلحاد، ولكن التعمق فيها ينتهي بالعقول إلى الإيمان. ذلك لأن عقل الإنسان قد يقف عندما يصادفه من

obeikandl.com

أسباب ثانوية مبعثرة، فلا يتابع السير إلى ما وراءها، ولكنه إذا أمعن النظر، فشهد سلسلة الأسباب كيف تتصل حلقاتها لا يجد بدًّا من التسليم بالله».

تلك هي شهادة رجال رسخوا في علوم الكون، وغاصوا في أعماقها. وهي شهادات في جانب الإيمان. ولكن الشك والإلحاد يأتيان من جانب الذين عرفوا قشورًا من العلم. أو درسوا قليلًا من الفلسفة. كما قال بيكون بحق.

إن الإيمان بالله ليس غريزة فطرية فحسب، بل هو ضرورة عقلية كذلك، وبدون هذا الإيمان سيظل هذا السؤال الذي أثاره القرآن قلقًا حائرًا بغير جواب: ﴿أَمْ خُلِقُوا۟ مِنْ غَيْرِ شَىْءٍ أَمْ هُمُ ٱلْخَٰلِقُونَ ﴿٣٥﴾ أَمْ خَلَقُوا۟ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؟ [الطور: ٣٥، ٣٦].

وهم بداهة لم يُخلقوا من غير شيء، وطبعًا لم يخلقوا أنفسهم. ولم يدّع أحد منهم ولا ممن قبلهم أو بعدهم أنه خالق السموات والأرض! فمن الخالق إذن؟!

وليس لهذا السؤال إلا جواب واحد، لا يملك الإنسان - إذا ترك ونفسه- إلا أن يجيب به، كما فعل المشركون أنفسهم: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ ٱلْعَزِيزُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [الزخرف: ٩].

●إلى أين المسير؟

أما السؤال الثاني: إلى أين؟ . . فإن الماديين يجيبون عنه جوابًا يهبط بالإنسان المكرّم إلى درك الحيوانية الدنيا. إنهم يقولون ببساطة عن مصير الإنسان بعد رحلة الحياة الحافلة: إنه الفناء والعدم المطلق: أن تطويه الأرض في بطنها كما طوت ملايين الحيوانات الأخرى، وأن تعيد هذا الجسد - الذي هو الإنسان عندهم- إلى عناصره الأولى، فيعود ترابًا تذروه الرياح!

هذه هي قصة الحياة والإنسان عند هؤلاء: «أرحام تدفع، وأرض تبلع»! ولا خلود ولا جزاء. يستوي في ذلك من أحسن غاية الإحسان، ومن أساء كل الإساءة. يستوي في ذلك من عاش عمره للناس على حساب شهواته، ومن عاش عمره لشهواته على حساب الناس. يستوي في ذلك من ضحّى بحياته في سبيل الحق. ومن اعتدى على حيوات الآخرين في سبيل الباطل!

فعلام إذن تميز الإنسان على غيره من كائنات الأرض؟ ولماذا سخر له كل ما حوله؟ ولماذا منح من المواهب والقوى الروحية والعقلية ما لم يمنح لغيره؟ وما سر هذا التطلع إلى الكمال والخلود يغمر جوانب نفسه. إذا كان مصيره التلاشي والعدم بعد أيام الحياة المعدودات؟!

أما المؤمنون فهم يعرفون إلى أين يسيرون؟. يعرفون أنهم لم يخلقوا لهذه الدنيا. وإنما خلقت هذه الدنيا لهم.

يعرفون أنهم خلقوا لحياة الخلود ودار البقاء وهم في هذه الحياة إنما يُستصلحون ويُعَدون للدار الأخرى، ويتزودون منها هنا ما ينفعهم هناك، ويترقون في مدارج الكمال الروحي والنفسي حتى يكونوا أهلًا لدخول تلك الدار الطيبة التي لا يدخلها إلا الطيبون، وهناك يقول لهم خزنتها: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُمۡ طِبۡتُمۡ فَٱدۡخُلُوهَا خَٰلِدِينَ﴾ [الزمر: ٧٣].

وإنه لعسير على العقل أن يؤمن بخالق عليم حكيم أحسن هذا الكون صنعًا وقدَّر كل شيء فيه تقديرًا، ووضع كل شيء فيه بميزان وحساب، ثم يؤمن بعد ذلك أن سوق هذه الحياة ستنفض، وقد نهب فيها الناهب، وسرق السارق، وقتل القاتل، ولا تقتص يد العدل الإلهي من هؤلاء المجرمين، ولا تنتصر للضعيف المظلوم الذي لم يكن له نصير غير الله، ولا ملجأ غير السماء، ولا تكافئ المحسن الذي كافأه الناس بالتنكر والاضطهاد! ! إن هذا لهو العبث الذي يتنزه خالق هذا الكون البديع عنه، وإنه لَلباطل الذي قامت السموات والأرض بضده. وما أروع القرآن وهو يوضح هذه الحقيقة الكبيرة: ﴿أَفَحَسِبۡتُمۡ أَنَّمَا خَلَقۡنَٰكُمۡ عَبَثٗا وَأَنَّكُمۡ إِلَيۡنَا لَا تُرۡجَعُونَ ﴿١١٥﴾ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ ٱلۡمَلِكُ ٱلۡحَقُّۖ﴾ [المؤمنون: ١١٥، ١١٦]. ﴿أَيَحۡسَبُ ٱلۡإِنسَٰنُ أَن يُتۡرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]؟ ﴿أَمۡ حَسِبَ ٱلَّذِينَ ٱجۡتَرَحُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ أَن نَّجۡعَلَهُمۡ كَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ سَوَآءٗ مَّحۡيَاهُمۡ وَمَمَاتُهُمۡۚ سَآءَ مَا يَحۡكُمُونَ ﴿٢١﴾ وَخَلَقَ ٱللَّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ بِٱلۡحَقِّ وَلِتُجۡزَىٰ كُلُّ نَفۡسِۢ بِمَا كَسَبَتۡ وَهُمۡ لَا يُظۡلَمُونَ﴾ [الجاثية: ٢١، ٢٢] ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا بَٰطِلٗاۚ ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْۚ فَوَيۡلٞ لِّلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلۡمُفۡسِدِينَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَمۡ نَجۡعَلُ ٱلۡمُتَّقِينَ كَٱلۡفُجَّارِ﴾ [ص: ٢٧، ٢٨]. ﴿وَمَا خَلَقۡنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ وَمَا بَيۡنَهُمَا لَٰعِبِينَ ﴿٣٨﴾ مَا خَلَقۡنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلۡحَقِّ

obeikandl.com

وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٩﴾ إِنَّ يَوۡمَ ٱلۡفَصۡلِ مِيقَٰتُهُمۡ أَجۡمَعِينَ﴾ [الدخان: ٣٨-٤٠].

●لماذا خلق الإنسان؟

وأما السؤال الثالث وهو الذي يجب أن يسأله الإنسان - بعد أن يعرف أنه مخلوق لخالق ومربوب لرب - وهو ببساطة: لماذا خلقت في هذه الحياة؟ ولماذا ميزت على سائر الكائنات الأخرى؟ وما مهمتي فوق الأرض؟

فالجواب عنه عند المؤمنين حاضر: إن كل صانع يعرف سر صنعته: لماذا صنعها؟ ولماذا صنعها على نحو معين دون غيره؟

والله -تعالى- هو صانع الإنسان وخالقه ومدبر أمره، فلنسأله: يا رب لماذا خلقت هذا الإنسان؟ هل خلقته لمجرد الطعام والشراب؟ هل خلقته للهو واللعب؟ هل خلقته لمجرد أن يمشي على التراب، ويأكل مما خرج من التراب، ثم يعود كما كان إلى التراب، وقد ختمت القصة؟ هل ليعيش تلك الفترة القصيرة المعذبة ما بين صرخة الوضع وأنة النزع؟ إذن فما سر هذه القوى والملكات التي أودعتها الإنسان من عقل وإرادة وروح؟

وسيرد الله على تساؤلنا بما بيّن لنا في كتابه -كتاب الخلود- أنه خلقه ليكون خليفة في الأرض - وهذا واضح في آدم وما كان من تمني الملائكة لمنزلته ﴿وَإِذۡ قَالَ رَبُّكَ لِلۡمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٞ فِي ٱلۡأَرۡضِ خَلِيفَةٗۖ قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠].

وأول شيء في هذه الخلافة أن يعرف الإنسان ربه حق معرفته ويعبده حق عبادته قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ وَمِنَ ٱلۡأَرۡضِ مِثۡلَهُنَّۖ يَتَنَزَّلُ ٱلۡأَمۡرُ بَيۡنَهُنَّ لِتَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدۡ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عِلۡمَۢا﴾ [الطلاق: ١٢] وفي هذه الآية جعلت معرفة الله هي الغاية من خلق السموات والأرض.

ويقول تعالى: ﴿وَمَا خَلَقۡتُ ٱلۡجِنَّ وَٱلۡإِنسَ إِلَّا لِيَعۡبُدُونِ ﴿٥٦﴾ مَآ أُرِيدُ مِنۡهُم مِّن رِّزۡقٖ وَمَآ أُرِيدُ أَن يُطۡعِمُونِ ﴿٥٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلرَّزَّاقُ ذُو ٱلۡقُوَّةِ ٱلۡمَتِينُ ﴿٥٨﴾﴾ [الذاريات: ٥٦ - ٥٨].

وفي بعض الآثار القدسية يقول سبحانه: «عبادي. إني ما خلقتكم لأستأنس بكم من

وحشة ، ولا لأستكثر بكم من قلة ، ولا لأستعين بكم من وحدة على أمر عجزت عنه ، ولا لجلب منفعة ولا لدفع مضرة ، وإنما خلقتكم لتعبدوني طويلًا ، وتذكروني كثيرًا ، وتسبحوني بكرة وأصيلًا».

إن المتأمل في هذا الكون الذي نعيش فيه يرى كل شيء فيه يحيا ويعمل لغيره ، فنحن نرى أن الماء للأرض ، والأرض للنبات ، والنبات للحيوان ، والحيوان للإنسان ، والإنسان لمن؟ هذا هو السؤال.

والجواب الذي تنادي به الفطرة ، وتنطق به مراتب الكائنات في هذا الكون : أن الإنسان لله . لمعرفته ، لعبادته . للقيام بحقه وحده. ولا يجوز أن يكون الإنسان لشيء آخر في الأرض أو في الأفلاك ، لأن كل العوالم العلوية والسفلية مسخرة له ، وتعمل في خدمته كما هو مشاهد ، فكيف يكون هو لها أو يعمل في خدمتها؟

ومن هنا كانت عبادة الإنسان لقوى الطبيعة ومظاهرها من فوقه ومن تحته ، كالشمس والقمر والنجوم والأنهار والأبقار والأشجار ونحوها ، قلبًا للوضع الطبيعي ، وانتكاسًا بالإنسان أي انتكاس! !

والإنسان إذن بحكم الفطرة ومنطق الكون ، إنما هو لله سبحانه لا لغيره. لعبادته وحده ، لا لعبادة بشر ولا حجر ، ولا بقر ولا شجر ، ولا شمس ولا قمر ، وكل عبادة لغير الله إنما هي من تزيين الشيطان عدو الإنسان.

● النداء الأول في كل رسالة : ﴿ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ﴾ :

هذه العبادة لله وحده هي العهد القديم الذي أخذه الله على بني الإنسان ، وسجله بقلم القدرة في فطرهم البشرية ، وغرسه في طبائعهم الأصيلة ، منذ وضع في رؤوسهم عقولًا تعي ، وفي صدورهم قلوبًا تخفق ، وفي الكون حولهم آيات تهدي ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا۟ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ ٱعْبُدُونِى ۚ هَٰذَا صِرَٰطٌ مُّسْتَقِيمٌ﴾ [يس : ٦٠، ٦١].

هذا العهد بين الله وعباده هو الذي صوَّره القرآن في روعة وبلاغة حين قال : ﴿وَإِذْ أَخَذَ

openkanoz.com

﴿رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَأَشۡهَدَهُمۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدۡنَآۚ أَن تَقُولُواْ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنۡ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴿١٧٢﴾ أَوۡ تَقُولُوٓاْ إِنَّمَآ أَشۡرَكَ ءَابَآؤُنَا مِن قَبۡلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةٗ مِّنۢ بَعۡدِهِمۡۖ أَفَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلۡمُبۡطِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٢، ١٧٣].

فلا عجب أن يكون المقصود الأعظم من بعثة النبيين، وإرسال المرسلين، وإنزال الكتب المقدسة، هو تذكير الناس بهذا العهد القديم، وإزالة ما تراكم على معدن الفطرة من غبار الغفلة أو الوثنية أو التقليد. ولا عجب أن يكون النداء الأول لكل رسول: ﴿يَٰقَوۡمِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنۡ إِلَٰهٍ غَيۡرُهُۥٓ﴾ [الأعراف: ٥٩] بهذا دعا قومه نوح وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وكل رسول بعث إلى قوم مكذبين. قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ بَعَثۡنَا فِي كُلِّ أُمَّةٖ رَّسُولًا أَنِ ٱعۡبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱجۡتَنِبُواْ ٱلطَّٰغُوتَۖ﴾ [النحل: ٣٦] ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٍ إِلَّا نُوحِيٓ إِلَيۡهِ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٢٥﴾﴾ [الأنبياء: ٢٥] وقال تعالى بعد أن ذكر قصص طائفة كبيرة من الأنبياء: ﴿إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱعۡبُدُونِ ﴿٩٢﴾﴾ [الأنبياء: ٩٢] كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرُّسُلُ كُلُواْ مِنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَٱعۡمَلُواْ صَٰلِحًاۖ إِنِّي بِمَا تَعۡمَلُونَ عَلِيمٞ ﴿٥١﴾ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ﴾ [المؤمنون: ٥١، ٥٢].

● الجميع مأمورون بالعبادة

وقد أمر الله نبيه محمدًا ﷺ بقوله: ﴿وَٱعۡبُدۡ رَبَّكَ حَتَّىٰ يَأۡتِيَكَ ٱلۡيَقِينُ ﴿٩٩﴾﴾ [الحجر: ٩٩] أي الموت. كما قال تعالى على لسان قوم ﴿وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوۡمِ ٱلدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّىٰٓ أَتَىٰنَا ٱلۡيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾ [المدثر: ٤٦، ٤٧] وهو الموت. فالتكليف بالعبادة لازم له حتى يلحق بربه. لم تسقط عنه بسمو الروح ولا بالاتصال القوي بالله. وهكذا ظل حتى في مرض موته عابدًا لله.

وقال تعالى في شأن المسيح عيسى ابن مريم الذي رفعه قومه إلى مرتبة الألوهية ﴿لَّن يَسۡتَنكِفَ ٱلۡمَسِيحُ أَن يَكُونَ عَبۡدٗا لِّلَّهِ وَلَا ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ ٱلۡمُقَرَّبُونَۚ وَمَن يَسۡتَنكِفۡ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيَسۡتَكۡبِرۡ فَسَيَحۡشُرُهُمۡ إِلَيۡهِ جَمِيعٗا ﴿١٧٢﴾ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَيُوَفِّيهِمۡ أُجُورَهُمۡ وَيَزِيدُهُم مِّن فَضۡلِهِۦۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ ٱسۡتَنكَفُواْ وَٱسۡتَكۡبَرُواْ فَيُعَذِّبُهُمۡ

عَذَابًا أَلِيمًا وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴾ [النساء: ١٧٢، ١٧٣].

ويعرض لنا القرآن مشهدًا من مشاهد يوم الحشر. يسأل الله فيه المسيح عما نسبوه إليه وافتروه عليه، فيجيب في أدب العبودية متبرئًا مما صنعوا ﴿وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَـٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَـٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالَ سُبْحَـٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيَ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِي بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴾ [المائدة: ١١٦، ١١٧].

ويروي إنجيل متى عن المسيح أن إبليس اللعين أراد أن يختبره فأخذه إلى جبل عال جدًا، وأراه جميع ممالك الدنيا ومجدها ثم قال له: أعطيك هذه كلها إن خررت ساجدًا لي. حينئذ قال له المسيح عليه السلام: «اذهب يا شيطان. فإنه قد كتب: للرب إلهك تسجد. وإياه وحده تعبد».

فالأديان كلها دعوة إلى عبادة الله وحده. والأنبياء جميعًا أول العابدين لله.

وعبادة الله وحده هي -إذن- مهمة الإنسان الأولى في الوجود. كما بينت ذلك كل الرسالات.

* * *